أهل البيت عليهم السلام نموذج الخلافة الإلهيّة الأمثل

رئيس التحرير
◆ د. عمار عبد الرزاق الصغير

لا يختلفُ المسلمون في الدور التفسيري الرائد الذي قام به النبيّ الأعظم صلى الله عليه وآله، بوصفه المفسِّر الأوّل للقرآن الكريم، إلى جانب دوره المحوري في مجال تطبيق مفاهيم القرآن، وتبيين نظرته العامّة إلى الكون والحياة، هذا الدور الذي يحتاج إلى دراساتٍ تخصّصيّةٍ موسّعةٍ لمعرفة حُدوده ومدياته.

ولعلّ أبرز ما يُلحظ في هذا الدور التفسيريّ للنبيّ صلى الله عليه وآله، تمثله في مستويين: المستوى الأوّل هو المستوى العام الذي يُبيّنه للعامّة، بحدُود الحاجة، ومتطلّبات الواقع، وبقدر الاستيعاب ومستوى التلقّي. وبسببه اعتقد البعض أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله لم يُبيّنْ من القرآن إلّا عددًا محدودًا من الآيات، كما في الخبر الذي أخرجه البزّار: "ما كان رسول الله صلى الله عليه وآله يُفسِّر شيئاً من القرآن إلا آيًا بعَدد، علَّمه إيّاهُنَ جبريل"[1]. وهذا الاعتقاد مخالفٌ لقوله تعالى في بيان وظيفة النبيّ صلى الله عليه وآله: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[النحل:44]، فقد وضّح القرآن الكريم أنّ تبيينه صلى الله عليه وآله كان تفسيراً شاملاً.

أمّا المستوى الثاني، فهو المستوى التفسيري الخاصّ، الذي يتطلّب وعيًا عميقًا واستيعابًا شاملاً للأغراض القرآنيّة، وحملاً لتراث القرآن الكريم، ولم يكن بين المسلمين من يمتلك هذه الأهلية

1 - الخبر رواه البزار عن عائشة، انظر: تفسير الطبري، ج1 ، ص 29.

سوى الإمام علي(عليه السلام)، الذي نزل فيه قوله تعالى: ﴿**وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ**﴾[الحاقة:12]، الأمر الذي يُتيح له أنْ يكون مرجعاً أمينًا بعد النبيّ(صلى الله عليه وآله) في فهم القرآن، وإفهامه للأمّة، وضماناً لعدم تأثر فهمها بأفكار خاصّة أو منحرفة أو مسبقات ذهنيّة، أو رواسب جاهليّة. وقد فسّر النبيّ(صلى الله عليه وآله) القرآنَ للإمام علي(عليه السلام) تفسيراً مُستوعبًا تفصيليًّا يُناسب قابليته، وقام الإمامj بدوره بنقله إلى الأئمة من أبنائه، فتوارثوه جيلاً بعد آخر.

وقد أسّس النبيّ (صلى الله عليه وآله) بهذا الأسلوب مبدأ مرجعية أهل البيت (عليهم السلام) في شتّى الجوانب الفكريّة للرسالة، وهذا يفصح عن أهليّتهم للخلافة الإلهية، وأنّ مشروعهم لا يقتصر على زمانهم، لأنّ الخلود الذي أراده القرآن لنفسه، واستمرار فاعليته مرجعًا ودستورًا، يتطلّب وجود أنموذج معياري وأمثل في تفسيره وتطبيقه، ملازم له على نحو الدوام، وههنا نستظهر قول رسول الله(صلى الله عليه وآله) بأنّ القرآن وأهل البيت «لن يفترقا أبدًا». ولم يكن هذا التأبيد ممكنًا لو لم يكن ما عند أهل البيت (عليهم السلام) -منهجًا ومشروعًا- تمثّلاً ناطقًا ومطابقًا للقرآن نفسه، بمعانيه ومقاصده وأغراضه.

إذ إنّ القرآن الكريم بيانٌ للمعارف الإلهيّة، وحقائق الوجود، والشرائع والإرشادات والوصايا في الحياة الدنيا والآخرة، على نحو القواعد الكليّة والأصول العامّة في الغالب، ممّا أظهر الحاجة إلى مزيدٍ من التفصيل والإيضاح والتبيين، فكان الرجوع الى سُنّة النبيّ(صلى الله عليه وآله) وأهل بيته (عليهم السلام) هو السبيل لتفصيل الكليّات وبيان الإجمال، وتطبيق ذلك بالسُنّة – القوليّة والفعليّة والتقريريّة- لتتّضح معالم كلّ قاعدةٍ دينيةٍ معرفية، وتُطبَّق على وجهها الأمثل.

لذلك، آمن الشيعة الإمامية بنظرية محورية القرآن ومدارية السُنّة، ولم يكتفوا بمحوريّة القرآن[1]، خلافًا لمقولة: "حسبُنا كتاب الله"، والتي تُعدّ من التفسير بالرأي المنهي عنه، لأنّ ذلك يعني إلغاء دور السُنّة وعلاقتها بالقرآن، وإقصاء القناة التفسيرية الأنقى، المتمثّلة بالنبيّ وأهل بيته، فهم المخاطبون الأمثل له، والحلقة الأساس بين الله والبشريّة، فلا يَفهم النصّ إلاّ من خُوطِب به، وهو حديث الإمام الباقر (عليه السلام) «إنّما يعرفُ القرآنَ من خُوطِب به»[2] . وفي هذا الإطار، فقد سأل

1 - كذلك لا تكتفي بنظرية الاكتفاء بالسنّة الشريفة من دون القرآن.
2 - الكليني: الكافي، ج8، ص312.

رجل الإمام الرضا عليه السلام فقال: إنّك لتفسِّر من كتاب الله ما لم يُسمع. فقال عليه السلام: «علينا نزل قبل الناس، ولنا فُسِّر قبل أن يُفسَّر في الناس، فنحن نعرف حلاله وناسخه ومنسوخه و..»[1].

والنبيّ لا ينطق عن الهوى[2]، فهو المصدر الثاني للمعرفة الدينية والتشريع، وفي ذلك يقول صلى الله عليه وآله: «ألا إنيّ أُوتيت القرآن ومثله معه»، ولأنّ الإماميّة يعتقدون بعصمة الأئمة عليهم السلام وخلافتهم للنبيّ صلى الله عليه وآله، وهم حملة القرآن بعده[3]، لقول صلى الله عليه وآله: «إنيّ تاركٌ فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي، لن يفترقا أبدًا حتى يَردَا عَليّ الحوض»[4]، فقد وسَّعوا من مفهوم السنّة ليشمل أحاديث المعصومين كافة، وقولهم وتقريرهم. وعلى هذا فإنّ قول المعصوم عليه السلام نبيًّا كان أم إمامًا هو حجّة في مقام بيان مُراد الله تعالى ومقاصده في القرآن، فمع ثبوت صدوره عنه عليه السلام لا شُبهة في لزوم الأخذ به.

وتدلّ آياتٌ عديدةٌ أنّ بولاية أهل البيت عليهم السلام اكْتَمل الدّين وتمّ، منها قوله تعالى: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا**﴾[المائدة:3]. وقد نزلت بعد مبايعة الإمام علي عليه السلام في غدير خُم، وبعد أن علّق -سبحانه- تبليغ الدين الإسلامي على التبليغ بها، بقوله تعالى:﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ**﴾[المائدة:67] ، وقد بلّغ الرسول صلى الله عليه وآله ما يُراد منه بقوله صلى الله عليه وآله: «من كنتُ مَوْلاهُ فعليٌّ مَوْلاه»[5]، بكلّ ما يحمل النصّ من إطلاقٍ عابرٍ للزمن والكيفية، في نقل قيادة مشروع النبيّ إلى الإمام علي عليه السلام، ومنحه المرجعية الدينية والفكرية والسياسيّة على الأمّة بعده صلى الله عليه وآله، هذه المرجعية التي نقلها الإمام -بدوره- إلى حملة التراث المنصوص عليهم من بعده، من قِبل الله تعالى وتبليغ النبيّ صلى الله عليه وآله.

فتمامُ الرسالة بهذا التبليغ الذي علّق عليه إظهارها وكمال الدين، ممّا يُبيّن التطابق التّام بين ما

---

1 - تفسير نور الثقلين: عبد علي بن جمعة الحويزي، ج 4، ص 595، ح 19.

2 - لقوله -تعالى-: ﴿**وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى**﴾[النجم:3-4-5].

3 - وردت روايات متواترة عن النبيّ صلى الله عليه وآله بضرورة التمسّك بالقرآن والعترة الطاهرة عليهم السلام، وروايات مستفيضة في أنّهم معدن العلم والوحي والنبوّة، وأنّهم ورثة علم الأنبياء والمرسلين، وأنّهم أعلم الناس بالقرآن بعد النبيّ صلى الله عليه وآله وورثة علمه.

4 - الكليني: الكافي، ج2، ص415، النسائي. السنن الكبرى، باب فضائل علي، ج5، ص46، ح: 8148 .

5 - الصدوق: الخصال، ص 572 ، ح1 .

يحمله الإمام والقرآن الكريم، لاسيّما إذ نظرنا إلى الأسلوب الشرطي والإلزام الذي يقتضي هذا التطابق.

وممّا يُبيّن وحدة نهج القرآن وأهل البيت عليهم السلام، قاعدة عرض الحديث على القرآن الكريم، ففي حديثه صلى الله عليه وآله بمنى قال: «أيّها الناس ما جاءكم عنّي يوافق كتابَ اللّه فأنا قلتُه، وما جاءكم يخالفُ كتابَ اللّه فلم أقلْه»[1]، لهذا كلّ ما يأتون به هو وحي، بوصفه تطبيقًا للأصل النبوي، أو تمثيلاً له، أو مصداقه الأمثل. وقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: «كلّ شيءٍ مردود إلى الكتاب والسنّة، وكلّ حديثٍ لا يُوافق كتابَ الله فهو زخرف»[2].

ولعلّ من وظائف السُّنة هو تطبيق الآيات على مصداقها الأمثل والسيرة العملية - أي فعل المعصوم- مثل قوله صلى الله عليه وآله: «صلّوا كما رأيتموني أصلّي»[3]. لتكون السيرة العملية وفِعل المعصوم ومشروعه حجّةً وتمثيلاً للمشروع الإلهي، فإنّها تُبيّن جزئيات الأحكام وتوضّح العناوين التكليفية التي ذكرها القرآن، أي تكون الوجه الواقعي والفعلي التطبيقي للمُراد القرآني وغرضه وقصده.

ومع استمرار الزمن، ونظرًا للتحوّل والتغيّر المستمر لأحوال المجتمع وظروفه، تبرز الحاجة أكثر إلى السُّنة العمليّة، وتطبيقها الأمثل، يأتي مشروع الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف إحياءً للمعالم الدينيّة المندثرة، وإعادةً لحركة الدّين إلى مسارها الصحيح، بعدما طالتها يدُ التلاعب والإهمال، فصارت غريبةً مُستصعبة.

فمثلما جاء القرآن بآيات وتشريعات مُجملة كليّة، فقام النبيّ صلى الله عليه وآله ببيانها لتناسب مستوى المخاطَبين، وتفصّله لهم، كذلك، سيأتي مشروع الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف، ليُعيد هذا البيان إلى أصوله الواقعيّة، ويطبّقه بوجهه الأصح، سواء بالمصداق أم ببيان وجه التأويل، لإعادة بناء الإسلام الأصيل، وتقديم النموذج الإلهي السليم للدولة التي أرادها الإسلام للبشرية.

1 - وسائل الشيعة: ج 18، ص79، الباب 9 من أبواب صفات القاضي، الحديث 15.
2 - الكافي: ج1، ص69، باب الأخذ بالسنّة وشواهد الكتاب، الحديث 3.
3 - المجلسي: بحار الأنوار، ج82، ص 279.

وهنا، يتّضح بأنّ منطلقات مشروع الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف بكلّ ما يحمل من فعلٍ وقول وتقرير، ومرتكزاته التي يتحرك في ضوئها، تنبعث من القرآن الكريم وسُنّة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، ليكونا مرجعيةً له لا يختلف عنهما ولا يتخلّف، أيّ لن يفترقا أبدًا، فيكون مشروع الإمام تمثيلاً تطبيقيًّا للقرآن الكريم، بكلّ جزئياته وتفصيلاته.

انطلاقًا ممّا تقدّم، يَأْتي هذا العدد من (مجلة تبيين)، ليكشف عن المرجعية الإسلامية للعقيدة المهدوية، وقد احتضن محور العدد، مجموعة من المقالات والبحوث، أكّدت على الجُذور القرآنية والسُّنية للإمامة الشيعية وللمشروع المهدوي، كما كشفت عن فلسفة إقامة العدل والقضاء على الظُّلم والجَوْر في هذا المشروع، بالإضافة إلى مُناقشة عدد من الشُّبهات والإشكاليات المُرتبطة بأسباب وعِلَل غَيْبة الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف، وأهمّية انتظار الفَرَج.. بالإضافة إلى مناقشة موقف الاستشراق الغربي من عقيدة الخلاص والمهدوية، في باب البحوث والدراسات، وقراءة في كتاب: «المهدي المنتظر الإمام الثاني عشر عجل الله تعالى فرجه الشريف».

نأمل أنْ يُساهم هذا العدد، في إثراء الحديث حول هذا الموضوع، الذي هو اليوم مَثارَ جَدل ونقاش، حيث البشرية تتطلّع نحو الخلاص ونشر العدل، وقد بدأت الأرض تمتلئُ ظُلماً وجَوْرًا..

والحمدُ للهِ ربِّ العالمين.

رئيس التحرير